موقف سعيد النورسي من المدنية الغربية:

وقف سـعيد النورسي تجاه الحضارة الغربية موقفًا انتقائيًا واعيًا[1] فهو قد اعترف بأن في هذه الحضارة: محاسن كثيرة، لكنه يبطل زعم الغرب بتفرده في إنشائها، ويجرده من المصداقية، فهي نتاج العالم وملك الجميع.[2]

يقارن مفكرنا بين المدنية الغربية، والمدنية الإسلامية أو النابعة من روح الشريعة الإسلامية، فيرى: أن الشريعة الإسلامية ترفض هذه المدنية الغربية لأنها تأسست على خمسة أسس سلبية؛ فنقطة استنادها هي القوة، وهذه شأنها الاعتداء. وهدفها وقصدها المنفعة وهذه شأنها التزاحم. ودستورها في الحياة؛ الجدال والصراع وهذا شأنه التنازع والرابطة التي تربط المجموعة البشرية هي: العنصرية والقومية والسـلبية التي تنمو على حسـاب الآخرين. وهذه شـأنها التصادم كما نراه. وخدمتها للبشرية خدمة فاتنة جذابة: هي تشجيع هوى المنفعة و إثارة النفس الأمارة، وتطمين رغباتها وتسـهيل مطالبها، وهذا الهوى شأنه إسقاط الإنسان من درجة الملائكية إلى درجة الحيوانية الكلبية، وبهذا نكون سـببًا لمسـخ الإنسـان معنويًا فمعظم هـؤلاء المدنيين لو انقلب باطنهم بظاهرهم لوجد الخيال تجاهه صور الذئاب والدببة والحيات والقردة والخنازير.

ولأجـل هذا، فقد دفعت هذه المدنية الحضارة ثمانين بالمائة من البشرية إلى أحضان الشـقاء وأخرجت عشرة بالمائة منها إلى سـعادة مموهة زائفة.

(1) محمد رشدي عبيد: دراسة بعنوان «فكر سعيد النورسي» قراءة معاصرة، المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي، 1996م، ص475 وما بعدها.
(2) النورسي: الكلمات، ص858.

وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك علمًا بأن السعادة تكون عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية، بيد أن سعادة هذه المدنية هي لأقل القليل من الناس.[1]

هكذا يصور لنا النورسي بأسلوبه وفكره البديع أمراض هذه الحضارة وهذه المدنية الغربية، وأنها لم تحقق سعادة المجموع، بل هي حضارة الأثرة والأنانية.

وفي هذا الصدد يعلق النورسي على أن روح هذه الحضارة تختلف عن روح الحضارة الإسلامية القائمة على العدل والشمول والتوازن، ولهذا يقول: و إنه لجدير بالتأمل استنكار العالم الإسلامي من هذه المدنية، وعدم تلهفه لها وتحرجه من قبولها لأن الهداية الإلهية التي هي الشريعة تعطي خاصية الاستقلال والاستغناء عن الآخرين، ولا يمكن أن تطعم هذه الشريعة بالدهاء الروماني ولا أن تمتزج معها ولا يمكن أن تبلعها أو تتبعها، إن دهاء الرومان واليونان - أي حضارتهما - وهما التوأمان الناشئان من أصل واحد، قد حافظا على استقلالهما وخواصهما رغم مرور العصور وتبدل الأحوال ورغم المحاولات الجادة لمزجهما بالنصرانية أو إدماجهما بهما. فلقد ظل كل منهما كالماء والدهن لا يقبلان الامتزاج بل إنهما يعيشان الآن بروحهما بأنماط مختلفة وأشكال مختلفة.[2]

فلئن كان التوأمان، مع وجود عوامل المزج والدمج والأسباب الداعية له، بم يمتزجان طوال تلك الفترة فكيف يمتزج نور الهداية الذي هو روح

(1) النورسي: صيقل الإسلام، المجلد 8، ص357.
(2) النورسي: المرجع السابق، ص358.

الشريعة مع ظلمات تلك المدنية التي أساسها دهاء روما، لا يمكن بحال من الأحوال أن يمتزجا أو يهضما معًا.[1]

ويشير مفكرنا إلى المدنية الحقيقية أو المدنية الجديرة بمكانة الإنسان: التي تأمرنا بها الشريعة الغراء وتتضمنها، فهي التي ستنكشف بانقشاع هذه المدنية الحاضرة، وتضع أسسًا إيجابية بناءة مكان تلك الأسس النخرة الفاسدة. نعم إن نقطة استنادها هي الحق بدلًا من القوة. والحق من شأنه العدالة والتوازن. وهدفها الفضيلة بدلًا من المنفعة، والفضيلة من شأنها المحبة والتجاذب. وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية: الرابطة الدينية، والوطنية، والمهنية بدلًا من العنصرية.

وهذه شأنها الأخوة الخالصة، والسلام والوئام، والزود عن البلاد عند اعتداء الأجانب ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصراع والجدال والتعاون من شأنه التساند والاتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكمًا على الخدمات التي تقدم للبشر وشأن الهدي: رفع الإنسانية إلى مرتقى الكمالات، فهي إذ تحدد الهوى وتحد من النزعات النفسية تطمين الروح وتشوقها إلى المعالي.[2]

والمقارن بين الأسس الايجابية في المدنية الإسلامية والأسس السلبية في المدنية الغربية يرى البون شاسعًا بين مدنية الحق والعدل ومدنية الصراع والجدال، وبين مدنية الهدي الإلهي ومدنية الهوى، ومدنية تنشد الفضيلة ومدنية تنشد المنفعة، وتحد من طلاقة الروح.

(1) النورسي: المرجع السابق، نفس الصفحة.
(2) النورسي: المرجع السابق، ص359.

ويصور لنا النورسي الأسباب العقائدية التي دفعت المدنية الغربية المعاصرة إلى أن تحيد عن طريق الحق والحقيقة فيقول: إن أساس النصرانية الحاضرة - لا النصرانية الحقة - وأساس الإسلام يفترقان في نقطة مهمة، لذا يسلك كل منهما طرقًا مغايرة لطريق الآخر في كثير من الجهات الشبيهة بالفروق السابقة وتلك النقطة المهمة هي: إن الإسلام دين التوحيد الخالص يسقط الوسائط والأسباب عن التأثير ويهون من شأن أنانية الإنسان مؤسسا العبودية الخالصة لله وحده. فيقطع دابر كل نوع من أنواع الربوبيات الباطلة، ويرفضها رفضًا باتًا بدءًا من ربوبية النفس الأمارة.[1]

أما في النصرانية الحاضرة، فلقد ارتضت عقيدة البنوة، لذا تعطي للوسائل والأسباب تأثيرًا حقيقيًا، ولا تقاوم الأنانية باسم الدين، بل تمنح الأنانية نوعًا من القداسة وكأنها وكيل مقدس عن سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.[2]

الواقع أن عالِمُنا النورسي ينقد النصرانية الحاضرة أو المحرفة، وليست النصرانية الحقة التي أتى بها سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا في رأيه أس الداء وسبب البلاء؟

وفي هذا الصدد يذهب أحد الدارسين المعاصرين: أنه باعتراف مفكري الغرب هُمشت المسيحية بدليل إن الذي يؤمن بوجود إله في أوروبا 14 % ومن يذهب إلى الكنيسة 10 % بل إن القساوسة يجذبون الناس إلى الكنائس ولو بإباحة الشذوذ وموسيقى الجاز.[3]

(1) النورسي: المكتوبات، ص563.
(2) النورسي: المرجع السابق، نفس الصفحة.
(3) د. محمد عمارة: حوار/ جريدة عقيدتي، بتاريخ 1 يناير2000م، ص9.

في الوقت الذي هُمشت فيه المسيحية - كما أشرنا آنفًا - في الغرب، نجد أن من مظاهر القوة في الحضارة الإسلامية هو الدين ونور الإيمان، حتى العلوم المدنية قد انبثقت عن الدين وازدهرت بفضله، تقدم الفلك لأن ثلاثة من الأركان الخمسة للإسلام تقوم على الفلك: الصلاة والصوم والحج، وابتكر المسلمون علم حساب المثلثات للحاجة إليه في تحديد قبلة الصلاة في مختلف البلدان.[1]

الجدير بالذكر أن النورسي يفرق بين أوروبا التي تأثرت بالنصرانية الحقة، والنصرانية المحرفة أو المشوهة، وهذا يعد في نظرنا من آيات النهج الموضوعي في النظر والتحليل، فرغم موقفة الواضح من الحضارة الغربية إلا أنه لا يبخس الناس أشياءهم من منطلق النظر القرآني العادل ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الشعراء: 183].

يقول في (اللمعات) في شكل حوار بينه وبين أوروبا وهي طريقة تربوية للتشويق وإثارة انتباه المتلقي: إن أوروبا اثنتان، إحداهما: هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات، وعلوم تخدم العدل والانصاف، فلا أخاطب في هذه المحاورة هذا القسم من أوروبا، وإنما أخاطب أوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة.[2]

ويخاطب أوروبا الفاسدة فيقول: يا أوروبا الثانية أعلمي جيدًا أنك قد

(1) النورسي: المرجع السابق، نفس الصفحة.
(2) النورسي: اللمعات/ المجلد 3، ص177.

أخذت بيمينك الفلسفة المضللة السقيمة وبشمالك المدنية المضرة السفيهة، ثم تدعين إن سعادة الإنسان بهما. ألا شُلت يداكِ وبُئست الهدية هديتك[1]. ثم يقول: يا أوروبا الفاسدة! إنك تستندين إلى أسس واهية نخرة: فتزعمين: أن كل كائن حي مالك لنفسه، ابتداءً من أعظم ملك وانتهاءً إلى أصغر سمك. كل يعمل لذاته فقط، ولأجل نفسه فحسب، ولا يسعى أحد إلا للذاته الخاصة ولأجل هذا له حق الحياة. فغاية همته وهدف قصده هو ضمان بقائه واستمرار حياته. ثم إنك ترين «قانون التعاون» جاريًا فيما بين المخلوقات امتثالًا لأمر الخالق الكريم الذي هو واضح جلي في أرجاء الكون كله كإمداد النباتات للحيوانات والحيوانات للإنسان، ثم تحسبين هذا القانون والسنة الإلهية وتلك التجليات الكريمة الرحمة المنبعثة من ذلك التعاون العام جدالًا وخصامًا وصراعًا، حتى حكمت ببلاهة إن الحياة جدال وصراع![2].

ويرى النورسي أن شقوة ومعاناة الإنسان المعاصر، يعود إلى أن مدنية أوروبا تكفُر بأنعم الله عليها، ومن ثم كانت النتيجة واضحة للعيان!

فهو يحاور المدنية الأوروبية قائلًا لها: أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكُفر وثبت الجحود ! تُرى هل يمكن أن يسعد الإنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة وترفله في زينة ظاهرة خادعة وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة، وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد. ألا ترين أن من يئِس من أمر جزئي، وانقطع رجاؤه من أمل وهمي، وخاب ظنه من عمل تافه، كيف يتحول خياله العذب مرًا علقمًا، وكيف يتعذب ما حوله من أوضاع لطيفة، فيضيق عليه الدنيا كالسجن بما رحبت ! فكيف بمن أصيب

(1) النورسي: المرجع السابق ، نفس الصفحة.
(2) النورسي: المرجع السابق، ص180.

بشـؤمك بضربات الضلالـة في أعمق أعـماق قلبه، وفي أغـوار روحه حتى انقطعـت بتلك الضلالة جميع آماله، فانشـقت عنها جميع آلامة، فأي سـعادة يمكنك أن تضمنين لمثل هذا المسكين الشقي؟ وهل يمكن أن يطلق لمن روحه وقلبه يعذبان في جهنم، وجسمه في جنة كاذبة ذائلة.. أنه السعيد.[1]

لم يرفـض سـعيد النورسي المدنية المعـاصرة رفضًا باتًـا، ولم يقبلها قبولًا تامًـا إنمـا نظر إليها في تـوازن واعتدال، دليـل هذا قوله: إن مـا أنجزته هذه المدنيـة (الغربية) الحاضرة من الخوارق نعم ربانية تسـتدعي شـكرًا خالصًا من الإنسـان على ما أنعـم عليه، وتقتضي منـه كذلك اسـتخدامًا ملائمًا لهذه الفائدة البشرية ومنفعتهم.. ويستمر في السياق نفسه ما ذهب إليه بمثال حي تتجـلى فيه فكرة وجوب إخضـاع منتجات العصر إلى أصالـة الأمة: الرادو ونعمـة إلهية عظيمة على البشرية فبينما تقتضي شـكرًا معنويًـا عليها وذلك باسـتخدامها لصالح البشرية كافة، نرى أربعة أخماس اسـتعمالها تصرف في إثارة الأهواء النفسية، وإلى أمور تافهة لا تعني الإنسان في شيء.[2]

وفي هـذا يؤكـد النورسي على أن القـرآن الكريم لا يبخـس الحضارات حقها فيما أنجزت من عمران وتشـييد وبنـاء، ولكنه يبين أن الجانب القيمي الأخلاقي هو الذي يحفظ إنسـان الحضـارات ويجعل عنده المناعة والرشـد الذي يقيه التدهور والفساد.[3]

(1) النورسي: نفس المرجع، ص177.

(2) النورسي: سيرة ذاتية 339، أيضًا عمار حيدل: بديع الزمان وإثبات الحقائق الإيمانية (المنهج والتطبيق، ص187).

(3) د. أحمد محمد العسال: حوار الحضارات (مدخل إلى رؤية إسلامية)، مكتبة وهبة، ص32.

فأي أمة أو حضارة أعرضت عن سنن الحق في النفس والحياة، والعلاقات والأشياء، وأعرضت عن هدي الله فكفرت بأنعمه وأشركت به سبحانه واستعلى أولو الأمر فيها فتكبروا وتجبروا واتبعوا أهواءهم فتنكبوا الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة، فظلموا أنفسهم وتجبروا على قومهم وشاعت فيهم منكرات الأخلاق والأفعال.. إذا فعلوا ذلك نزل عقاب الله لا محالة[1]، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: 16].

ويقول تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: 58].

يضع عالمنا النورسي يده على هذه القاعدة الذهبية التي يعتقد أنها الأصوب في التعامل مع المدنية الغربية وهي: «خذ ما صفا دع ما كدر». وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب - مشكورين - كل ما يعين الرقي من علوم وصناعات. أما العادات والأخلاق السيئة فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا تبين قبحها كثيرًا لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة. فنحن لو أخذنا منهم المدنية بسوء حظنا وسوء اختيارنا - بما يوافق الهوى والشهوات - كالأطفال تاركين محاسنها التي تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها، نكون موضع سخرية كالمخانيث أو كالمترجلات، إذ كيف إذا لبست المرأة ثياب الرجل ولبس الرجل ثياب المرأة، يكون كل منهما موضع سخرية واستهزاء ألا ما يكون لنا أن نتجمل بمساحيق التجميل.[2]

(1) أحمد محمد العسال: المرجع السابق، ص28.
(2) النورسي: سيرة ذاتية، ص86.

وينتهي مفكرنا بضرب المثال، وأنه: ينبغي لنا الاقتداء باليابانيين في المدنية، لأنهم حافظوا على تقاليدهم القومية التي هي قوام بقائهم وأخذوا بمحاسن المدنية في أوروبا، وحيث إن عاداتنا القومية ناشئة من الإسلام، وتزدهر به فالضرورة تقضي الاعتصام بالإسلام.[1]

وبعد عرضنا لموقف سعيد النورسي من المدنية الغربية، ألا يدفعنا هذا إلى بيان موقفه من الفلسفة الغربية. هذا ما سنحاول إماطة اللثام عنه في الصفحات القادمة؟

موقف سعيد النورسي من الفلسفة الغربية:

بعد أن عرضنا لموقف مفكرنا سعيد النورسي من المدنية الغربية، يجدر بنا أن نشير إلى موقفه من الفلسفة الغربية، وهل هو موقف الرفض؟ أم موقف القبول، وهذا ما سنوضحه من خلال عرضنا.

يشير بديع الزمان إلى أن: العرب النجباء كانوا أمة أمية في الجاهلية، ولكن لما تجلى الحق فيهم، وتيقظ استعداد حياتهم بمشاهدة الدين المبين، وجهوا رغباتهم وميولهم كلها في معرفة الدين وحده، ولم يكن نظرهم المتوجه إلى الكون من نوع التفضيل الفلسفي، بل نظر استطراد للاستدلال ليس إلا.[2]

يرى سعيد النورسي: أن دخول طائفة من الإسرائيليات وقسم من الفلسفة اليونانية ضمن دائرة الإسلام وظهورها بزي الدين الجميل شوهت الأفكار[3].

(1) النورسي: سيرة الذاتية، نفس الصفحة.
(2) خديجة النبراوي: في يقظة الأمة، ص67.
(3) النورسي: صيقل الإسلام، 24، خديجة النبراوي، في يقظة الأمة، ص67.